من تراب الطريق (٣٢٩) إلام تقودنا الأطماع ؟! (*)

لا مفرّ للعاقل من الإقرار بأن أطماعنا تقودنا أكثر من أى دافع آخر ، والأطماع تعنى ما نشتهيه ونسعى إليه مما نتصور أنه يرضينا فى الحال أو فى المآل . أما ما نشتهيه فقط دون أن نسعى إليه أى سعى فهو أمنية فقط !

و«الأطماع» فى عمومها ـ أعم بكثير ـ من كلمات الرضا والقربى والذرية والإرث ، وكلمات الخير والعدل والحلال والحرام والصدق والحق والرزق والنعم ، ومن كلمات العطايا والمواهب ، والاصطفاء والاختيار ، والأمان والسلام ، والفوز والانتصار والتوفيق ، والذكر والجاه والسلطة والقوة ، والولاء والأحباب والأتباع .

ولم يخل قلب لآدمى ـ حتى ولو كان قديسًا أو وليًّا أو مقربًا ـ من الأطماع فى عمومها .. لأنها فى عمومها لا تتعارض مع إخلاص المخلصين ووفاء الأوفياء وصفاء قلوب سليمى القلب والسريرة .. فكل منا يطمع فى صحة البدن والعقل .. وكل مؤمن يطمع فى الجنة ومرضاة الله التى تؤهله للمغفرة والمثوبة والإكرام .

والأطماع فيها عنصر الاحتمال والاستقبال .. حتى ولو كان موضوعها قد تحقق ، ما دام العلم بحصوله لم يصل إلى من ينتظره .. كشأن الناجح

(*) المال١٦/ ٩/ ٢٠٠٩

أو الفائز الذى لم تصله بعد نتيجة الامتحان التى تقررت ولم تعلن بعد أو تصل إلى علمه ..إذ لا ينقطع الاحتمال والشك إلاّ بيقين علمه بنتيجة الامتحان أو المسابقة . أما إن كان الموضوع مقطوعًا بتحققه أو باستحالته فإن الطمع فيه إما تحصيل حاصل أو حماقة وعبث !

وغلبة الأطماع على حياة الآدمى ضرورة فرضتها كثرة الاحتمالات والمجاهيل والغيبيات فى حياته الفردية والاجتماعية .. فهو من لحظة الإخصاب إلى أن يغادر الدنيا يتحسس طريقه الذى لا يعرفه بيقين .. ويحدس ويخمن ويتأول ويخاطر ويغامر ويقامر ويَخْدع ويُخدع ويسلم ويستسلم ، ثم ينتهى وهو صفر اليدين أو يكاد .. لا يترك إلاّ آثارا ومأثورات لا تقطع باتجاه واحد ثابت .. ولا تلقن الآخرين سلوكًا بعينه يلتفتون إليه وينتفعون به ولا يخالفونه .

أطماع الآدمى لا تعرف منها نهاية بأطماع غيره من الحيوان والنبات .. وربما كان هذا وراء وحدة الاتجاه فى كل جنس ووحدة السلوك فى كل نوع .. ولعله وراء كثرة الأجناس وكثرة الأنواع كثرة هائلة لا يتصور معها إمكان وحدة أو توحيد كما قد يتصور مع الآدميين !!

ويبدو أن كثرة الاحتمالات والغيبيات فى حياة الآدمى ، قد حُسِبَ حساب مواجهتها والتعايش معها ـ ضمن تكوين المخ الآدمى والوعى والفهم والذاكرة والمخيلة والعواطف المركبة والمعقدة .

وهذا المخ هو الوحدة الحقيقية للجنس البشرى التى تجمعه لتفرقه وتفرقه لتجمعه هكذا دواليك .. ولا يشاركه فى تلك الخاصية الفذة

الهائلة أى مخلوق آخر .. فأطماع الإنسان أيًا كان وأيًا كان موقعه وعصره ـ ثمار مخه وفهمه .. قابلة لأن يقوّمها أو يفسدها ويضلها مخه وفهمه .. أيًا كان زمانه ومكانه وجنسه ولونه ودينه ولغته .

وربما اختصر ترقى الوعى والفهم الكثير من أطماع الآدمى البدائى .. خاصة ما اعتمد منها على فورة الغضب والشبق والجشع .. أو ما اعتمد على فرط الثقة فى جدوى العنف والتيه بالقوة البدنية واستخدامها فى إذلال النساء والأطفال والضعاف وأصحاب العاهات والأغراب .. لكن الترقى زاد رغم هذا فى أطماعنا المتحضرة التى جعلت سلامنا حربا مستورة ، وأمننا خوفا وتأمينا ، وصحتنا علاجًا متواصلًا ومكلفًا للفرد والدولة ، وجعلت الأمومة والأبوة والقربى ـ أوهاما ، وجعلت المحبة والصداقة والوفاء ـ أحلامًا قصيرة الأجل جدًا !

ولم يعد لأطماع المتحضر أوالجماعات المتحضرة .. لم يعد لهذه الأطماع حدٌ أو بعدٌ تقف عنده ولو لوقت يسمح بالتقاط الأنفاس والاستعداد .. لم يعد فرض هذا الحد على الناس أو إقناع الناس بالتزامه ـ فى مقدور أى سلطة أو قوة سياسية أو عسكرية أو اجتماعية أو دينية ، ولا هو فى مقدور أى مذهب أو مجموعة أو معارف أيًا كان حظها من الإصابة أو بعد النظر .. وربما احتاج ذلك إلى تضافر جميع هذه القوى والرؤى والمعارف .. وهو ما يكاد يكون مستحيلا ـ ولو تحقق زمنا أخفق أزمانا .. لأن حياة الآدميين نهر جارٍ عديد الروافد والمنعطفات والمنحدرات .. تتوالى عليه بغير انقطاع رياح التغيير والتطوير والإعاقة .. تارة هادئة ،

وتارات هادرة عاصفة ـ بلا توقع يسمح بالاستعداد والمسايرة المحسوبة المتبصرة .. ولذلك كان الآدميون من جميع الأجناس والملل والنحل ولا يزالون ـ يؤمنون بسلطان القضاء والقدر وبأسرار الغيب التى لا يعلمها إلاّ الخالق .. وذلك وتلك بداياتها دائمًا أطماع بشرية اختيارية تتجاوز نهاياتها الحسابات والمشيئات التى كانت فى البدايات !

والصلة بين الأطماع وبين الحظ وثيقة للغاية .. إذ لا يخلو طمع طامع من افتراض شىء من حسن الظن بالأيام والأحداث ، أو على الأقل من افتراض أنه لن يصادف هو بالذات سوء طالع مفاجئ ليس فى استطاعته إبعاده .. لأن من يطمع يفترض دائما أنه قد أقام مطمعه على أسس متينة محكمة ، وزودها بما يكفيها من عوامل يرجح معها الفوز .. وهو غالبا ما يبالغ فى التفاؤل قليلا أو كثيرا ـ لشدة شوقه وقوة رغبته فى نيل ما يطمع فيه .. وهو حين يفشل يعزو فى الغالب هذا الفشل للحظ العاثر والمقادير المكتوبة ومعها تدخل الخصوم والحاسدين الذين لا يغفر لهم قط تدخلهم ذلك الذى يزعمه أو يفترض حصوله بدلالة فشله الذى صدمه !!

*****